المديح النبوي عند شعراء شبه القارة

(دراسة وصفية)

Prophetic praise among the poets of the sub-continent (Descriptive Study)

Doi: 10.5281/zenodo.7627938

**Dr. Abdul Majeed Baghdadi*
***Dr. Shabana Nazar*

ABSTRACT

The Arabs, since the pre-Islamic era, used to mention in their poetry their nobles of generosity, courage, forbearance, loyalty, and protection of one's neighbor, and the master among them was not considered complete unless he sang his dignity and virtues.

Praise as a purpose of poetry, was common in the production of many Arab poets, since the pre-Islamic era, when the pre-Islamic poets admired the superior men of kings, ministers, dignitaries, and the rich in terms of manners, opinion, courage, generosity, and generosity, so they stirred your tongues with praise and admiration, praising the ideals that they saw with them.

These poets may have looked at them as the drowning man looks at the savior, the poor man looks at the rich man, and the needy one looks at the gracious one, and they praise them. The most important poets, who were famous for this purpose in the pre-Islamic era, were Al-Nabigha Al-Dhubyani and Zuhair bin Abi Salma.

Keywords: *The Arabs, pre-Islamic era, poetry, Praise, Arab poets, Al-Nabigha Al-Dhubyani and Zuhair bin Abi Salma.*

مفهوم المدح

مدحه ک منعه، يمدحه مدحا ومدحة بالكسر، هذا قول بعضهم، والصحيح أن المدح مصدر، والمدحة إسم، والجمع مدح، أحسن الثناء عليه، و نقيضه الهجاء.

قال علماء الاشتقاق وفقهاء اللغة: المدح بمعنى الوصف الجميل، ويقابله الذم---،وفي المصباح مدحته مدحا ک ''نفع'' أثنيت عليه بما فيه من الصفات الجميلة، خلقية كانت أو اختيارية---، نقله شيخنا ''المديح والمدحة'' بالكسر والأمدوحة بالضم، ما يمدح به من الشعر، جمع ''مديح'' مدائح و جمع أمدوحة، أماديح1.

**Associate Professor, Department of Arabic, AIOU, Islamabad,*
*** Assistant Professor Department of Arabic, The Islamia University of Bahawalpur*

منذ فجر التاريخ أحسّ الانسان بالفوارق الاجتماعية بينه وبين أخيه الإنسان، و شعر باختلاف المواهب والقيم عند الناس، ورأى الأقدار تضع و ترفع، و تعطى وتمنع، لذلك سعى إلى رضا من هم فوقه، وتجعل خيالهم بالقول، فوقف، منهم موقف الاحترام والتردد، فكانت أقواله تعبّر عن المديح، سواء أكان هذا المديح صادرا عن قرارة نفسه أم من أطراف لسانه، فهو يقرّ بالرياسة والزعامة، لمن يتصور أنهم سبقوه بالغنى والشجاعة والكرم والقوة والفهم والذكاء،فهو يشترك مع الناس جميعا في النظر إلى الزعيم والقائد والوجيه والعالم والغني والسيد والأمير نظرة خاصة، ويشترك معهم كذلك في مديح هؤلاء حين يعري له القول أو يتعدّى الحديث والبيان شعرا و نثرا.2

فكذلك تعوّد العرب منذ العصر الجاهلي ان ينوّهو في أشعارهم بأشرافهم من الكرم والشجاعة والحلم والوفاء وحماية الجار، وكان لا يعدّ السيد فيهم كاملا الّا اذا تغنّى بنباهته ومناقبه. 3

والمديح باعتباره غرضا من أغراض الشعر، شاع في نتاج كثير من الشعراء العرب، منذ العصر الجاهلي، حينما أعجب شعراء الجاهلية بالرجال المتفوقين من الملوك والوزراء والوجهاء والأغنياء من حيث الخلق والرأى والشجاعة والكرم والجود، فحرّكوا ألسنتم بالثناء والإعجاب، امتدحوا المثل العليا التي رأوها عندهم.

وقد يكون نظر هؤلا، الشعراء إليهم نظرة الغريق إلى المنقذ، والفقير إلى الغنى، والمحتاج إلى المتفضّل، وكانوا يمتدحونهم.فأهمّ الشعراء، الذي اشتهروا بهذا الغرض في العصر الجاهلي، النابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى.

والنابغة الذبيانى، لما أراد أن يصف جود النعمان فامتحده بأنه أشدّ من سيل الفرات، وقال:

فـما الفُراتُ إذا هَبَّ الرِّياحُ لهُ

تَـرمي أواذيُّـهُ العـبْرَيـنِ بـالزَّبَـدِ

يَـمُـدُّهُ كـلُّ وادٍ مُـتْـرَعٍ لَـجِـبٍ

فـيـهِ رِكـامٌ مـن اليَـنْبوتِ والخَـضَـدِ

يـظَـلُّ مِـن خَـوفِـهِ المِلاَّحُ مُعتَصِمًا

بـالـخَـيْزرانَـةِ بَـعـدَ الأيْـنِ والنَّـجَـدِ

يـومًا بِـأجْـوَدَ مـنهُ سَـيْـبَ نـافِـلَـةٍ

ولا يَـحُـولُ عَـطـاءُ الـيـومِ دونَ غَـدِ 4

هذه الصور التي صنعها النابغة، ليرسم أن كرم النعمان وجوده كنهر الفرات، بل أشدّ وأكثر منه.

وكذالك استعار النابغة صورة أخرى لمديح مليكه، فشبه بالشمس بين الكواكب، لمكانه بين الملوك، وارتفاع قدره على أقدارهم، فقال:

ألمْ ترَ أنّ اللهَ أعطاكَ سورةً

ترى كلّ مَلْكٍ، دونَها،يتذَبذَبُ

فإنكَ شمسٌ ، والملوكُ كواكبٌ

إذا طلعتْ لم يبدُ منهنّ كوكبُ 5

هكذا سنّ النابغة للشعراء سنن المديح، حينما يتطلعون إلى الملوك، فأصبح المديح حرفة لاكتساب المال.

قال النقاد: إنه أول الاحتراف في المديح، و رأى بعضهم في شعر المديح لعصره يعير قلمه من يجود عليه أو يحمي حماه أو يظلّه بجناحه، فيرفع من قدره بمديحه، و يصوّره في احترام وحبّ و خوف، ويجعله فوق الناس وأعلى الملوك، فبذلك يختلف عن زملائه الجاهليين كإمرئ القيس--- حيث قالوا:

المديح هو حبّ عميق وشعور صادق، واعتراف بالواقع ولم يحترف بالمديح 6

وكذلك مدح زهير بن أبى سلمى كلّ من قام بإصلاح ذات البين، أو عمل عملا كريما، كما فعل مع هرم بن سنان والحارث بن عوف، اذ أصلحا بين عبس و ذبيان، ودفعها الديات من مالهما الخاص، وكان مدحه لهما ولغيره يقتصر على ذكر الصفات البدوية من شجاعة و رأى كريم وأصل عريق وتقوى خالصة. وكان زهير مخلصا في هذا المديح، يسعى وراء المعروف والفضل ويشيد بهما، ولكنه يفتتح المديح بالغزل التقليدي ثم ينتقل إلى صفات الممدوح، فيقول في هرم بن سنان والحارث بن عوف:

يَمِيناً لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وُجِدْتُمَا
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيْلٍ وَمُبْرَم
تَدَارَكْتُمَا عَبْسًا وَذُبْيَانَ بَعْدَمَا
تَفَانَوْا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمِ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نُدْرِكِ السِّلْمَ وَاسِعاً
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ القَوْلِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيْهِمُ مِنْ تِلاَدِكُمْ
مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمِ7

ومن المعروف أن العرب كانوا يعيشون فى أطراف الأرض على نظام عجيب، وأسلوب غريب، لا تجمعهم دولة، ولا يلمهم سلطان، ولا ينظمهم قانون واحد--- كأنما تنتظر زعيما يجمع شملها ، وقائدا يفيد من شجاعتها، وإماما يوحّد بين آرائها.

فلما ظهر محمدصلى الله عليه وسلم في قريش، و دعا إلى وحدة العرب واتحادهم، واجتماعهم، تحت دين واحد و راية واحدة، لينقذهم من فوضى وحروب تستنفر قواهم.

فهزّت دعوته القبائل و رؤساؤها، وبلغت الممالك المجاورة وملوكها، فوقفت بين مصدقة ومكذبة، حتى اذا بلغها ما كان عليه هذا الرسول صلى الله عليه وسلم من تعلق بالحق والوفاء والقناعة والتواضع، ومن مقدرة في البلاغة الفصاحة والبيان والسياسة، ومن مكانة في الشجاعة وقيادة الجيوش هالها أمره، وأدخلها خطره، فانصرف بعضهم إليه، و بعضهم عنه، فوقف له شعراء يتصدون للهجاء عليه، كما وقف معه آخرون يجدّون في الدفاع عنه وامتداحه. وقد كان هذا المديح أول الأمر يقتصر على امتداح خصاله و شمائله ورسالته وهو حيّ.

فلمّا قضى انصرف الشعراء إلى الثناء عليه وتعداد صفاته والإشارة بالإسلام، ونحن إنما نعد هذا من المديح، لأنه يتوجه بكلامه إلى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه موجود حيّ، يناديه ويناجيه، فيسمعه ويلبيه.8

فحصيلة الكلام السالف، أن المدح هو بيان الشمائل الطيبة والصفات الجميلة التى يكون الممدوح متصفا به، سواء كان يصدر عن قرارة نفسه، أو من أطراف لسانه.

ودوافعه التقدير لشخصية الممدوح، أو الاعجاب بفضائله وشمائلة وخصاله، أو الطموح الى نيل عطائه.

والمدائح النبوية من فنون الشعر، وهى لون من التعبير عن العواطف الدينية، وباب من الأدب الرفيع، لأنها لا تصدر إلّا عن قلوب مفعمة بالصدق والخلاص..... ولا يراد بالمدائح النبوية إلّا التقرب إلى الله، لنشر محاسن الدين، والثناء على شمائل الرسول--- كما قال الأعشى:

متى ما تناخي عند باب ابن هاشم
تريحي وتلقي من فواضله يدا
نبي يرى ما لا ترون وذكره
أغار لعمري في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تغب ونائل
وليس عطاء اليوم مانعه غدا 9

ولكن هذا ليس من المدائح النبوية،لأن الأعشى لم يقل هذه الأشعارفى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وانما كانت محاولة أراد بها التقريب إلى نبى الإسلام صلى الله عليه وسلم وآية دلت أنه انصرف حين صرفته قريش، ولو كان صادقا ما تحول.

فقد حدثوا أن قريشا رصدوه على طريقه حين بلغهم خبره و سألوه، أين تريد؟ فأخبرهم أنه يريد محمداً ليسلم، فأفهموه أنه ينهى عن الزنا والقمار والريا والخمر، فقال: لقد تركنى الزنا وما تركت ،وأبدى زهادته في القمار، رجاء أن يصيب من النبى صلى الله عليه وسلم عونا منه وقال عن الربا: ما دنت ولا أدنت، وأبدى جزعه عند ذكر الخمر وقال اوه، أرجع الى صبابة قد بقيت لى فى المهراس فأشربها.

فقال له سفيان: هل لك فى خير مما هممت به؟ قال: وما هو؟ قال: نحن الآن فى هدنة، فتأخذ مائة من الأبل وترجع إلى بلدك سنتك هذه، وتنظر ما يصير إليه أمرنا ، فإن ظهرنا عليه ، كنت قد أخذت خلفا، وان ظهر علينا أتيته، فقال: ما أكره ذلك-

فجمع له أبو سفيان من قريش مائة ناقة، فأخذها وانطلق الى بلده، فلمّا كان بقاع منفوحة، رمى به بعير فقتله.10 وهذه القصة تدلّ على أن مدحه للرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن الّا محاولة كسائر محاولات الشعراء الذين يكتسبون بالمدائح11

وكذلک أكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وما يقال بعد الوفاة يسمّى رثاء.12

و للمدح أنواع كثيرة، منها مدح الأنبياء والملوك والعظماء وأصحاب الجاه والمكانة
والوزراء، وقواد الحرب ورجال السياسة، والكرما، والعلماء.

فمدح الانبياء و خاصة مدح النبى صلى الله عليه وسلم أن الدافع له هو الحبّ الصادق، فهو لا يصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والخلوص، ولا يراد به إلّا التقرب إلى الله عزوجلّ-

والمدح بألوانه الأخرى، لا يكون كذلك، بل يكون لغرض اكتساب المال وغيره، فهو يصدر من أطراف اللسان- وما قيل قبل الوفاة يسمّى مدحا، وما قيل بعدها يسمّى رثاء. ولكن، بالنسبة إلى المدائح النبوية فالأمر ليس كذلك، لأنّ النبى صلى الله عليه وسلم ، كالأحياء، سواء كان قبل الوفاة أو بعدها، يسمى مدحا في كلتا الصورتين.

والشعراء الذين قد اشتهروا بالمديح النبوي في تاريخ الشعر العربي قبل القرنين الثاني عشر والثالث عشر، فأشهرهم البوصيرى13 الذي نظم قصائد المديح للنبي صلى الله عليه وسلم.

الشعر العربي في شبه القارة الهندية وإزدهاره:

يرجع تفكير المسلمن فى فتح السواحل الهندية والسندية و نشر الدعوة الاسلامية الى فترة مبكرة فى عهد أمير المؤمنين سيدنا عُمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقد قام واليه على عمّان و البحرين، عثمان بن أبى العاس الثقفى باعداد ثلاث حملات بحرية، تولّى بنفسه قيادة واحدة منها توجهت ناحية مدينة''تمانة''

على بعد ١٥ ميلا من مدينة بمباى الحالية، وتوجهت حملة ثانية الى ميناء''بهروج'' على الساحل اهندى، شمال اقليم سورت ببلاد الهند الآن، وقصدت الثالثة ميناء ''الديبل''، ويغلب على ظنَ المتخصصين، أنه كان فى موقع ميناء ''كراتشى'' الحالى- وقد حققت هذه الحملات أدهافها ونزلت على السواحل، وحققت انتمارات-14

وظلّ هذا التفكير فى الفتح و نثر الدعوة الاسلامية فى الهند والسند، حتى فى سنة ٩٢هـ، حيث اختستار الحجاج بن يوسف ابن أخيه و صهره، محمد بن القاسم الثقفى، وعيّنه قائدا عاما على الجيئس الاسلامى المتوجه لفتح بلاد الهند والسند، ففتح بلاد السند، حتى وصل الى ''ملتان'' فى اقليم البنجاب الحالية-

وقد سجّل الشعراء العرب الذين صاحبوا الجيش العربى الفاتح لهذه البلاد كثيرا من الوقائع الهامّة فى قصائدهم، وبعضهم لم يعجبوا لجيوش، ولكنهم تتبعوا أحداثها من بعيد، وتحدثوا عنها فى قصائدهم و دواوينهم-

ثم هناک الشعراء العرب الذين ظهروا فى هذه البلاد فى العصر العباسى، ونسهوا اليها، فلقبوا بالشاعر الملتانى، والشاعور السندى والشاعر الديبلى-

وهؤلاء الشعراء لم ينظموا الأشعار باللغة العربية وحدها، بل نظموا القصائد الرائعة باللغة المحلية أيضا، معبرين بها عن تعاليم الاسلام و أفكار أهل البلاد و عاداتهم- ويعتبر هؤلاء من أوائل الشعراء الذين ظهروا على مسرح التاريخ بهذه البلاد فى عهد العرب-

وهناک بعض الشعراء من أهل هذه البلاد الهندية الذين ذهبوا الى البلاد العربية، و استغادوا من العلوم العربية، وأصبحوا بعد زمن قليل، من الشعراء والأدباء الكبار فى اللغة العربية-15

ثم لما شاعت العلوم العربية والاسلامية فى هذه البلاد الهندية بعد مرور العصور، بدا الشعراء من ذوى الأصل الهندى ينظمون الأشعار العربية مثل أبى عطاء السندى فى البلاد الهندية، وحتى البلاد العربية، مثل قوله فى الحياة:

اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه شكى الفقرأولام الصديق فأكثرا

ومارعلى الأذنين كلاو أوشكت ملات ذوى القربى له أن تنكرا

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى تعش ذايسار أوتموت فتعذرا

وما يدريک الحاجات من حيث تبتغى من الناس الا من أجهد وشمّرا16

هكذا مرّت الأيام والسنون، وتطورت العلوم، العربية والاسلامية فى هذه البلاد، حتى جاء القرن الثانى عشر والثالث عشر المجريان، فشاعت العلوم العربية والاسلامية بأكثر أنواعها، مثل التغسير والحديث والنحو والبلاغة والفسلفة والكلام والعروض---، ومن خلالها ازدهر الشعر العربى فى هذه المرحلة أكثر فأكثر، ونظم هؤلاء الشعراء القصائد والدواوين فى شتى الأغراض والموضوعات-

فبالنظر الى مراحل تظور الشعر العربى حتى يومنا هذا، لم يوجد نظير هذه المرحلة، لافى العصور السالغة ولا فى اللاحقه.

أغراض المدح النبوي في شبه القارة:

أكثر الشعراء انتاجا فى هذين القرنين فى شبه القارة الهندية هو الشيخ غلام على آزاد البلكرامى،17 وله الدواوين السبعة التى اشتهرت باسم ''السبعة السيارة''، والأوّل والثانى و الثالث، التى حصلت عليها بصورة ماكينة من جامعة بنجاب بلاهور- وهى مجموعة من القصائد فى مختلف الأغراض العربية التقليدية من مدح و هجاء ورثاء ووصف وغزل وتصوف---،

ونجد فى هذه الدواوين الثلاثة تسعا وأربعين قصيدة فى مديح النبى صلى الله عليه وسلّم فى الجزء الأوّل ٢٣ قصيدة من مفحة ٢ الى ٤٨، وفى الجزء الثانى قصيدتان، وفى الثالث خمس قصائد فى المديح النبوى- وسوف ندرس هذا الموضوع فى الفصول القادمة ان شاء الله تعالىٰ-

وله أيضا ''قصيدة نونية'' فى وصف أعضاء جسم الجيبة من الرأس الى القدم، مشتملة على خمسة و مائة بيت، التى اشتهرت به''مرأة الجمال''-

وكان الشيخ آزاد/ملقبا بحسان الهند ومداح النبى ملى الله عليه وسلّم، وأيضا له فى التغزل طور خاص، يعرفه أصحاب الفّن، منحه الله قدرة على النظم، بحيث ينظم قصيدة كاملة فى يوم واحد، بل فى بعضه، وكلّما يتوجه الى النظم تحضر المعانى اليه صفا صفسا،وقد قرر نصاب القصيدة فى التغزل واحدا وعشرين بيتا،وهى الدرجة الوسطى التى تريح الأسماع ولاتملّ الطباع-

وللشاه ولى الله الدهلوى18 ديوان الشعر العربى الذى جمعه ابنه الشيخ عبدالعزيز، ورتّبه الشيخ رفيع الدين، ونجد له أبياتا كثيرة فى كتب مختلفة، فى الأغراض العربية التقليدية من مدح و فخر و تشبيب-

وله قصيدة فى مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم التى شرحها الشيخ بنفسه، وسماها ''أطيب النغم فى مدح سيد العرب والعجم''، وذكر فيها كمالاته و فضائله، وخصاله و معجزاته، صلى الله عليه وسلّم----،

وفى آخر هذا الشرح قصائدة الأخرى المشروحة نحو الهمزية المشتملة على ٤٥ بيتا فى المديح النبوى والتائية واللامية، كلّ منهما تشتملان على ثلاثين بيتا-

وللشيخ عبدالعزيز الدهلوى يد طولى فى نظم العربية، خامة فى المديح النبوى، وله أبيات كثيرة فى هذا الغرض، رغم أننا نجد بعض أشعاره فى االتغزل أيضا-

وكذلک الشيخ رفيع الدين الدهلوى19 خمس على بعض القصائد المدحية لوالده، و معظم قصائده فى المديح لانبوى، و تدأ قصيدته بالمديح النبوى بدون أى تمهيد من التغزل وغيره، نحو:

يا أحمد المختار ويا زين الورى يا خاتما للرسل ما أعلاكا

يا كاشف الضراء من مستنجد يا منجيا فى الحشر من والاكا

هل كان غيرک فى الأنام من استوى فوق البراق و جاوز الأفلاكا20

وله قصيدة بليغة فى العلوم الفلسفية التى عارض بها قصيدة أبى على بن سينا ''العينية''، التى تعرف بقصدية ''الروح''، ومطلعها:

هبطت اليک من المحلّ الأرفع ورقاء ذات تعزز و تمنع

وأجاب عنا الشيخ بقصدية مطلعها:

عجبا لشيخ فيلسوف ألمعى خفيت بعينيه منارة مشرع21

وكذلک قصائد العلامة الخير آبادى 22 تشمل كثيرا من الأغراض الشعرية التقليدية العربية، من المدح والوصف والغزل و الخمريات والحكمة والهجاء والتصوف-

وله قصائد ثلاث، ذكر فيها وقائع الثورة الهندية، نقل الشيخ عبد الشاهد خان الشروالى قصديتين منها فى خاتم كتابه ''باغى هندوستان''- أما القصيدة الثالثة هى القصيدة النونية، أشار اليها العلامة فى نهاية ''الشورة الهندية'' ما نصه:'' وكنت قد نظمت قصيدة فى قوافى النون فريدة كالدر المكنون، كل بيت منها بيت القصيد، بل بيت النشيد، عدد أبياتها ثلاثمائة أو يزيد، لم يتيسر لى التمامها و عاقنى هجوم البلايا و ارتكامها''-23

المدائح النبوية عند العلامة الخير آبادى:

هذا هو الطابع الذي انطبع به شعره، وهو أكثر الأغراض عنده اهتماما، وأحسنها منوالا، وأشدها تأثيرا، وأصدقها عاطفة، وهو أكثر شعره. وقد مر أنه قال الشعر في موضوعات عديدة، وتناول أغراضا كثيرة، إلا أن المدائح النبوية هي التي قال فيها الشعر أكثر من أي غرض آخر.

والمدائح النبوية غرض مستقل في الأدب العربي، وهو فرع لغرض المدح، ولكنه صار فنا مستقلا، إذ الممدوح فيه الواحد المعين: أفضل البرية، محمد صلي الله عليه وسلم. ونجد المدائح النبوية قديما في الأدب العربي، فنجدها عند المخضرمين، فكثير من الصحابة قرضوا الشعر في مدح النبي–عليه السلام–، واشتهر منهم في هذا الفن حسان بن ثابت رضي الله عنه، ولغيره أيضا مدائح في شأن الرسول–صلي الله عليه وسلم–، مثل قصيدة (بانت سعاد) لكعب بن زهير رضي الله عنه، التي استحسنها النبي–صلي الله عليه وسلم–وأعطاه بها بردته.

وظل هذا الغرض يعالجه كثير من شعراء العرب في القرون المتتالية، إلا أن هذا الفن قد ازدهر في العصر المملوكي بالقرن السابع، عندما قال الإمام البوصيري قصيدة الشهيرة، التي نالت الشهرة في الآفاق باسم قصيدة البردة. ونجد المدائح النبوية اكثيرا عند الشعراء الصوفية، والشعر الذي يمثل هذا الغرض في الشعر العربي أجمل شعر العرب، إذا إنه خال من التكلف والتصنع، وفيه تدفق روحي، وصدق المشاعر ما يجعل هذا الشعر في قمة الجمال والروعة.

وشاعرنا أكثر في المدائح النبوية، وتفنن في معالجة هذا الموضوع، ففي معظم الأحيان استهل القصائد بالتشبيب على عادة القدماء واستهل البعض بوصف حاله أو بوصف الصباح أو الخمر، وهذا كل ما هو المعروف لدى أول العرب. فهذا كعب بن زهير يستهل قصيدته بذكر حبيبته سعاد، ويعبر عن أسفه على البين الذي حال بينهما، وكذلك نجد

عمرو بن كلثوم يستهل معلقته بوصف الصباح والخمرة، فنلمس هنا أيضا أنه كان يحافظ علي الأساليب العربية القديمة.

وفي قصائد المديح يصف شمائل النبي صلي الله عليه وسلم و خصائصه، والبشائر الأولى ببعثته، ومولد الرسول صلي الله عليه وسلم، وإرهاصاته، ومعجزاته، وما جرى له في حياته، ويبين كونه أفضل الأنبياء، ويذكر شرف الحرمين، ويسأل الله زيارتهما، ويدعو الله الشهادة في المدينة، ويذكر مناقب آل الرسول وأصحابه، ويطلب شفاعة الرسول إلى غير ذلك من الأمور التي يذكرها، وكلها آية الجمال. وفي الديوان 21 قصيدة، تعالج هذا الموضوع، وتحتوي علي 2123 بيتا، وهذا دليل واضح علي كون هذا الفن محبوبا لديه، وأن معظم شعره في مدح النبي صلي الله عليه وسلم إذ مجموع القصائد في الديوان 33 قصيدة، ومجموع الأبيات 3370 بيتا.

وهذا نموذج شعره في المدائح النبوية:

يا من شكا أشجانه متذكرا إزامانه متناسيا سلوانه فازداد من أحزانه

حتام تجزع واصفا زمنا تقضى سالفا وتلوم دهرا عاسفا يفتن في حدثانه

دع ذكر عهد قد مضى ولى حميداً وانقضى سلم لمحتوم القضا واصبر على جريانه

وامداح لتحقيق الرجا و سلوك منهاج النجا بحر الجدا بدر الدجى يمنحك من إحسانه

يا من يحوم للوحه انخ المطي بسوحه ينقعك فضل سموحه بفضالة من حانه (24)

وقال مادحا الرسول–صلي الله عليه وسلم–:

وفى الاله خلاقة كرما واحسن خلقه لطفاً و عظم خلقه بالوصف في قرآنه

اكرم بعافٍ رافدٍ حاف بعاف وافد زاكي الضرائب ماجد سمح على ضيفانه

كاسي العلى بكسائه قاصي المدى بعلائه داني الندي بسخائه حاني الوري بحنانه

باني الهدي وأساسه مروي الصدا من كأسه مردي العدى من بأسه في الحرب حين طعانه (25)

واقرأ في وصف جاه النبي صلي الله عليه وسلم و شفاعته المرجوة الأبيات التالية:

خل الإله عظيم الجاه جل عن ال الأشباه من بين أرواح وأشباح

عديله في صفات الفضل ممتنع والمتري والماري شر نباح (26)

ويقول رحمه الله في فضل النبي عليه السلام:

وأول رسل الله آخرهم فما له من مساو في العلى أو مقارب

مكين مثيل مثله ليس ممكنا وويل لمنكوب عن الحق ناكب

يفوق النبيين الكرام نقيبة فمنه استفادوا ما لهم من مناقب

سما فوقهم كالشمس فوق كواكب الس سماوات أو كالملك فوق الكواكب

دعا رسل ان يحسبوا أمة له على ما حباهم ربهم من مناصب

له خلق الله الأراضي والسما وما بينهما أو فوقها من عجائب (27)

ويصف حال الناس يوم القيامة من فزع يوم الحساب والإرهاق الذي يصيبهم في انتظار بدء الحساب، وتضرعهم أمام كل نبي ليشفع لهم ربهم حتى يبدأ الحساب وينجيهم مما هم فيه من هول وفزع وحر وعرق، ثم يشفع سيد الأنبياء صلي الله عليه وسلم:

لما شكوا وبكوا دما وأتوا المسيح وآدم والرسل بينهما فما فازوا بحام مرفد

فأووا إليه أجمع فلقوا شفيعا أروع عند الإله مشفعا لوجاهة وتودد (28)

ويقول في شفاعته أيضا:

تنجي وجاهته و جاهته غدا من لا يوازن حوبه حسناته

من كان يستغني عن استشفاعه لم يغن عنه صيامه وصلاته

من عت من يرجو شفاعته غو يربو على لدد العتاة عتاته

حقت شفاعة من أقيل بحقه نسيان آدم إذ بدت سوآته (29)

وبقراءة هذه الأبيات يتضح أن أجمل شعره هو ما قاله في مدح النبي–صلي الله عليه وسلم–، فكل شعره في هذا الغرض خلاب رائع سلس عذب متين قوي. وهو خال من التعسف والتكلف و يترشح فيه كل عواطفه الصادقة ومشاعره المتدفقة في حب الرسول–عليه السلام–. ولذا كان هذا الغرض أكثر شعره وأجمله. وجدير بالملاحظة أن شعره في مديح الرسول ثلثا شعره، ولم يعارض فيه أحدا، ولم يحاك شاعرا، حتى لم يعارض ميمية البوصيري التي نالت شهرة عظيمة، وعارضها كثير من الشعراء. وهذا الغرض أحسن ما يمثل ذوقه الأدبي وقدرته الشعرية.

هناک مجموعة قصائدة المخطوطة، بمكتبة مولانا آزاد سبحان الله كلكشن على كره، كما أجافت الدكتورة قمر النساء فى نهاية كتابها ''العلامة فضل الخير آباد'' بعض القصائد المخطوطة بصورة ماكينة-

قال الشيخ بن اسماعيل النبهانى للشيخ على المعصوم30 ديوان الشعر العربى الموجود فى المكتبة الخديوية، المصرية العمومية، ونقل بعنى قصائده فى مجموعته ''المدائح النبوية''31، وكذلک أشار هاحب نزهة الخواطر 32 أنه له ديوان الشعر العربى، وتناول فيه الشيخ على الأغراض الشعرية العربية التقليدية من مدح و غزل و فخر، و معظم قصائده فى المديح النبوى، كما نجد البعنى منها فى مدح أهل البيت-

وكذلک كان الشاه فقير الله العلوى 33شاعرا، وله يد طولى فى قرض الشعر العربى، ولا توجد أية قصيدة فى غرض آخر غير مدح النبوى صلى الله عليه وسلّم، كما وجدنا له القصيدة المبرورة فى المديح النبوى فى كتابه ''قطب الارشاد''، وتوجد نسخته مخطوطة فى مكتبة جامعة بشاور-

خلاصة البحث:

عرفنا من كلامنا السابق أن جميع الأغراض الشعرية عند هؤلاء الشعراء تقليدية، وأثر شيوعا منها المديح، هناک مدح العلماء والأمراء والرؤساء، لكن المديح النبوى يغلب عليها بالكثرة، ثم التغزل ثم الوصف ثم الرثاء ثم الهجاء، ثم التصوف، ثمّ الفخر، ثإ الفسلفة، ثم الخصريات-

اشتهر الشيخ غلام على آزاد البلكرامى فى المدح والوصف و التغزل، والعلامة فضل حق الخير آبادى فى المدح والتغزل والخمريات والتصوف-

والشيخ ولى الله الدهلوى فى المدح والتصوف، والشيخ رفيع الدين الدهلوى فى المدح والفسلفة، والشيخ على المعصوم فى المديح،34 والغزل-

والشيخ عبدالعزيز فى المديح وكذلک الشاه فقير الله العلوى فى المديح فقط-

الهوامش

[1]– الزبيدى، تاج العروس : ٢/٢٢١.

[2]– فنون الادب العربى4، المديح ص ٧.

[3]– شوقى ضيف، العصر الاسلامى، ص ٢١٥.

[4]– المديح من فنون الأدب العربى.

[5]– المرجع السابق :16 .

[6]– المديح من فنون الأدب العربى ١٢.

[7]– الزيات، تاريخ الأدب العربى 54.

[8]– سامى الدهان، فنون الأدب العربى 4- المديح ٧١-٧٢.

[9]– ديوان الأعش،46، المؤسسة العربية، لطباعه والنشر، بيروت.

[10]– إبراهيم شمس الدين ، قصص العرب ،الجزء الثاني،ص:370،داركتب العربية ،بيروت ،لبنان.

[11]– زكى مبارک، المدئح النبوية 14، ٢ ١٧-١٨.

[12]– المصدرالسابق ، 14.

[13]– هومحمد بن سعيد بن حماد بن محسن--- البوصيرى (٦٠٨-٦٩٦).

[14]- اشراق نور الاسلام فى الهند٢

[15]- التاريخ الاسلامى و الحضارة الاسلامية٢/١١

[16]- الانصانى ٧٨/١٦

[17]- الشيخ غلام على آزاد البلكرامى بن نوح، ولد فى بلكرام ١١١٦هـ، نشأ فى مهد العلم و الأدب، لم يكن له نظير فى زمانه فى النحو والغة و ال الشعر والبديع والتاريخ والسير و الأنساب-

سافر الى الحرمين الشريفين فى سنة ١١٥١هـ، مث فى مكة المكرمة ثلاثة أيام، ثم رحل الى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلّم، وأقام بها حوالى ثمانية أشهر، واتفاد فى الحديث من علمائها، عاد بعد أداء فريضه الحج الى الهند، فسكن بأورنک آباد سبع سنين، فحصلت بينه و بين ناصر جنک بن ملک آصف صداقة، فلسما قام ناصر جنک بالملک مقام والده، ألحّ عليه بقبول منصب الامارة، فأبى، وقال: هذه الدنيا كمثل نمر طالوت، غرفة منه حلال، وا الزيادة عليه حرام، وله مصنفات و مؤلفات كثيرة ذات موضوعات متنوعة-(نزهة الخواطر٦/٢٠٣–٢٠٧)

[18]- ولد الشاه ولى الله بن عبدالرحيم الدهلوى سنة ١١١٤هـ، فى أيام عالمكير-أخذ العلوم و الفنون المتداولة فى ذلک الزمن عن والده- وتزوّج فى الرابعة عشرة من عمره، وبايع والده- وتيسّرله الذهاب الى الحرمين الشريفين فأقام بها مدّة عامين- فاستفاد من علمائهما، ثمّ عاد الى الهند، وتوفى سنة ١١٧٨هـ بمدينة دهلى، وكان عمره اثنين كثيرة ذات موضوعات متنوعة(نزهة الخواطر ٦/٣٩٨-٤١٥)-

[19]- ولد الشيخ رفيع الدين بمدينة دهلى سنة ١١٦٣هـ، واشتغل بتحصيل العلم على أخيه الأكبر الشاه عبدالعزيز الدهلوى، وبايع على يد الشيخ البهلتى المتوفى ١١٨٧هـ، وصار من كبار العلماء توفى سنة ١٢٣٣هـ بدهلى و دفن بها (أردو دائرة معارف اسلامية ١٠/٣١٠–٣١٨)

[20]- نزهة الخواطر ١٨٤/٧

[21]- نزهة الخواطر ١٨٥/٧–١٨٦

[22]- العلامة- فضل حق بن فضل امام بن محمد أرشد الخير آبادى أحد الأساتذة المشهورين، لم يكن له نظير فى زمانه فى الفنون الحكمية و العلوم العربية- حفظ القرآن فى أربعة أشهر، تتلمذ فى العلوم على أبيه مولانا فضل امام المتوفى ١٢٤٤هـ، وبايع على يد الشيخ بدهو شاه الدهلوى، وتوفى العلامة الخير آبادى فى جزيرة اندمان أسيرا بمناسبة الشورة الهندية ضد النجلزيين سنة ١٢٧٨هـ (نزهة الخواطر ٣٨٤/٧–٣٧٧، أبجد العلوم ٣–٢٤٥)-

[23]- د/ قمر النساء، العلامة فضل حق الخير آبادى ٢٣٤

– [24]المصدر نفسه: ٤٢

– [25] المصدر نفسه: ٤٤

– [26] المصدر نفسه: ٤٥

–[27] المصدر نفسه: ١٢٤

–[28] المصدر نفسه: ١٢

– [29] المصدر نفسه: ١١

[30]- ولد الشيخ على بنا ٔحمد المعصوم الشيعى، سنة ١٠٢٥هـ بالمدينة المنورة فمن أصل فارسى، قدم الى ديار الهند فأنزله عالمكير سلطان الهند منزلة رفيعة عنده، توفى سنة ١١١٧هـ-

[31]- النبهانى، المدائح النبوية ٤٢/٢

[32]- عبدالحى لكهنوى، نزهة الخواطر ١٨٦/٦

[33]- ولد الشاه فقير الله الحنفى، جلال آبادى ثم الشكار بورى بمدينة روتاس من مضافات جلال اباد بأفغانستان، ونشاء بها ثإ هاجر الشكار بور (السند)، وبايع على يد الشيخ محمد مسعود، وقد أدى فريضة الحج، ولم يعرف تاريخ ميلاده، وقيل ١١٠١هـ، وتوفى ١١٧٠هـ (أردو دائره معارف اسلامية ٤٤٣/١٥–٤٤٤)-

[34]- معظم قصائدة فى المديح النبوى، وله قصائد فى مدح أهل البيت أيضا-